المرجعية القيمية للحماية من الأخطار البيئية

د. مصطفى الزباخ
مدير الأمانة العامة لاتحاد
جامعات العالم الإسلامي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلقد اكتشف الإنسان اليوم أمام مدركاته العقلية ومكتشفاته الصناعية ومبتكراته التكنولوجية هول المأساة التي تهدد حاضره، ومستقبله، بتعاظم الأخطار البيئية والمشكلات الطبيعية منها: تلوث الهواء، وندرة الموارد المائية، وارتفاع درجات الحرارة وتراجع التنوع البيولوجي، واستنزاف طبقة الأوزون الواقية للأرض والكائنات، وانجراف التربة، واختفاء الغابات وتهديد التوازن الطبيعي، وازدياد مساحة الصحراء.

ومع هذه التحدّيات التي أفضت إلى الاختلال في النظام البيئي القائم على التوازن والاعتدال، أدرك الإنسان حجم الخلل القائم بينه وبين بيئته التي تشكل الإطار الذي يحيا فيه، والمقوّمات الحيوية المتمثلة في غذائه ومأواه، وعلاقاته الإنسانية من عادات وقيم وأخلاق.

من هنا تنامى الاهتمام في العصر الحديث أكثر بقضايا البيئة ومشكلاتها ، وتزايد الوعي بأخطارها وضرورة حمايتها من أضرار الأنشطة البشرية المقودة بشهوة الأنانية، والسيطرة المستبدة اللامحدودة في مجالي الإنتاج والاستهلاك، مما دعا علماء البيئة والمفكرين الاستراتيجيين وبناة الحضارات والغيورين على مستقبل البشرية، إلى إيلاء الاهتمام للعلاقة المتبادلة بين الإنسان والمحيط البيئي الذي يعيش فيه، فدعوا إلى دراسة هذه الأزمة التي ترجع إلى خلل وصدام في العلاقة بين الإنسان والنظامين البيئي الطبيعي والحضاري على السواء، ومن ثمّ مضى المسؤولون في المنظمات الدولية والإسلامية والمفكرون يبحثون عن حصون أخلاقية وحلول قيمية جديدة

تعيد السلام والتعايش الإيجابي بين الإنسان والبيئة، وتنامى الوعي البشري بما تخلفه الأنشطة البشرية الضارة والحركات الصناعية الملوثة من مخاطر مخربة للموارد الطبيعية ومهددة لسلامة الميزان الصحي البشري، فبادرت الدول المصنعة إلى عقد أول اجتماع استشاري دولي بسويسرا عام ١٩١٣ حول حماية الطبيعة من عدوان الأنشطة الصناعية الضارة، وتلاه عام ١٩٢٣ عقد مؤتمر دولي بفرنسا حول عوامل تخريب الموارد الطبيعية، ثم مؤتمر دولي آخر سنة ١٩٣٢ لدراسة تأثير التكنولوجية الملوثة في الطبيعة، وبعد ذلك عقدت منظمة اليونسكو اجتماعين دوليين أحدهما بفرنسا عام ١٩٤٨ والثاني بأفريقيا عام ١٩٦٨، خصصا لدراسة الاستعمال العقلاني للأنشطة البشرية حول الموارد الطبيعية.

وبالرغم من هذه الاجتماعات البيئية والمؤتمرات الدولية التي نبهت إلى الأخطار المحدقة بالبيئة ومحدودية الموارد الطبيعية، فإنه لم يسجل إلا تقدم بطيء في مجال حماية البيئة من جراء الاستغلال البشري الضار المتنامي، مما دعا المجتمع الدولي إلى مواصلة جهوده لرفع الوعي بالآفات والتحدّيات التي تهدد صحة الحياة الإنسانية وحماية المنظومة البيئية، وسلامة مسار التنمية المستدامة، فعقد مؤتمر استوكهولم بالسويد عام ١٩٧٢، ومؤتمر تبليسي في الاتحاد السوفياتي السابق عام ١٩٧٧، ومؤتمر التنمية الاجتماعية بكوبنهاجن ١٩٩٥، وتعتبر قمة الأرض الأولى المنعقدة في ريو دي جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢، وقمة الأرض الثانية المنعقدة في نيويورك بأميركا عام ١٩٩٧، والمنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي المنعقد في مدينة جدة في أكتوبر عام ٢٠٠٠، والمؤتمران الإسلاميان الأول والثاني لوزراء البيئة اللذان عقدتهما

الإيسيسكو في جدة بالمملكة العربية السعودية عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٦، ومؤتمر القمة الإسلامي التاسع المنعقد في قطر في نوفمبر عام ٢٠٠٠، مرحلة متطورة في الوعي البيئي على المستوى الدولي والعربي الإسلامي، حيث أكدت هذه المؤتمرات الدعوة إلى تعزيز التوجّهات البيئية التالية في التفكير البيئي المعاصر:

أ. الدعوة إلى إيجاد سلوك بيئي جديد تحكمه "الأخلاق البيئية" والقيم الإنسانية البانية لعلاقة التعايش الإيجابي والاحترام وصون حقوق الكائنات الأخرى في الحياة، ونبذ الأنانية والفساد والإرهاب البيئي من أجل العيش المشترك.

ب. التوعية بمحدودية الموارد الطبيعية لتأمين التنمية المستدامة التي تقتضي ترشيد تعامل الإنسان مع الموارد الطبيعية استجابة لاحتياجاته الآنية والمستقبلية.

ج. اعتبار الأرض وما يحيط بها من ماء وهواء وكائنات حية نظاماً بيئياً متكاملاً: تتفاعل مكوناتها وتترابط كائناتها في علاقات متناغمة، ومتعاونة لاستمرار الحياة فيها وبالتالي لبقائها.

د. إن الإنسان حارس، أمين، مكلف شرعاً بحفظ صلاح الموارد الطبيعية والاجتماعية والثقافية، ومنهي عن إفسادها، وليس مالكاً مستبداً لها، إيماناً بأنّ مالك الكون هو الله خالقه، فبقدر تفوّق الإنسان بعقله ومهاراته تتفوق الكائنات الأخرى بخيرها، وطاقاتها، ومن هنا تكون "حقوق المخلوقات الأخرى على الإنسان" قاعدة شرعية وسنة كونية.

من خلال هذه التوجّهات التي أيقظت الضمير البيئي المعاصر وحررت المفهوم الطاغي للعلاقة بين الإنسان والبيئة من القيم السلبية القائمة على الاستغلال والسيطرة والفساد، تعزيز المنظور الشمولي والقيمي الجديد لدى

الإنسان نحو بيئته التي يعيش بها وفيها ومعها.

وإذا كانت البيئة في أوجز مفاهيمها تعني عند علماء البيئة الوسط الذي يحيا فيه الإنسان بما يحتويه من نظم بحرية وبرية وجوية لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته بمواردها، فإنّها تعني في الإسلام جماع المكونات الطبيعية والحضارية والصناعية والاجتماعية التي يحكمها نظام شامل من العلاقات المتفاعلة والمتكاملة القائمة على قاعدة تعبدية قيمية لسلامة الوجود البشري والطبيعي من الفساد والدمار.

من هنا يجدر بنا أن نتساءل عن المرجعية القيمية للحماية من الأخطار البيئية وصون السنن الإلهية في المخلوقات الكونية؟.

إذا كانت العلوم الفلسفية التي ركزت اهتمامها على علاقة الجنس البشري بالطبيعة فيما أصبح يسمى بـ"الفلسفة الإيكولوجية" (Ecological philosophy)، قد ربطت الأخلاق بالبيئة، وعنيت بدراسة علاقة الإنسان بالأرض باعتباره كائناً فاعلا ومتفاعلا مع بيئته، وعنصراً رئيساً في التنمية المستدامة، فإنّ الإسلام كان سبّاقاً إلى إثارة الوعي بهذه العلاقة التفاعلية بين الإنسان وبيئته، وكان حاضناً لأرقى القيم البانية للعلاقة السليمة بينهما.

إذا كان الإنسان القديم قد عاش في انسجام مع بيئته، فإنّ الإنسان المعاصر مع تقدّمه العلمي والتكنولوجي واتساع مساحة طموحه واستغلاله، قد نظر إلى البيئة نظرة العبودية، فأصبحت عنده مجرد مورد للاستغلال وليست جزءاً من عشيرته البيئية، ونسي في مراتب استعلائه علاقته القيمية بمحيطه البيئي ورسالته التعبدية والعمرانية في الأرض التي استخلفه الله فيها.

وإذا كان سبحانه وتعالى قد استخلف الإنسان في الأرض في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وفضله على كثير من المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فإن خلافة الإنسان في الكون وتفضيله على باقي المخلوقات تجعله مسؤولاً عن صيانة خيرات الأرض، وأميناً على سلامتها، وحارساً لعمارتها بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، إلا أنّ الإنسان بحكم تفضيله طغى واستبد، وعد نفسه مالكاً لا أميناً، وسيداً لا حارساً، فمضى فاسداً في الأرض ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

ووعياً بالكبرياء الذي قد يدعو الإنسان إلى احتقار الكائنات الأخرى وتسخيرها فيما يخدم شهواته الطاغية وأنانيته المتجبرة، توقعت الملائكة من أن يفسد الإنسان بخلافته في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

استناداً إلى هذا التصوّر الإسلامي للبيئة، يمكننا استجلاء سلم القيم المرجعية الإسلامية الكفيلة ببناء علاقة سامية، قويمة بين الإنسان وبيئته منها ما يلي:

أ. **الوعي بالغايات السامية للمخلوقات البيئية**: لقد خلق الله الكون في دقة صنعه، وترابط مكوناته، وتميّز عطاءات وقدرات مخلوقاته، لغايات سامية وأهداف تعبدية إصلاحية، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وهذا يعني في الرؤية الإسلامية أنّ البيئة بمواردها وكائناتها الحية، الحيوانية والنباتية، خلقت لغاية مقدسة ووظيفة قيمية جديرة بالاعتبار والاحترام، مما يستدعي استناداً إلى مقاصد الشريعة الإسلامية الاستفادة من وجودها واستغلال مواردها واحترام حقوقها بمنع التعدّي عليها والإخلال بتوازناتها لصلاح البيئة وحمايتها من كل فساد مضر بها، والانتفاع بها على الوجه المأذون شرعاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة:٦٠).

ويعتبر الإسراف مظهراً من مظاهر الفساد المخل بالنظام البيئي، والمنافي للترشيد العقلاني الداعي إلى الاستغلال الأمثل والمستدام للموارد الطبيعية، يقول تعالى ناهياً عن الإسراف: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١)، وهذا ما يقتضي إيجاد أخلاق جديدة، وقيم إنسانية مصدرها التعاليم الإسلامية التي تنظم علاقة الإنسان بالبيئة باعتباره عضواً في مجتمع المخلوقات على الأرض، يتبادل الأخذ والعطاء، التأثر والتأثير، ولا يقف منها موقف المستبد، الذي يعيث فساداً في النظام البيئي بمكوناته البحرية والبرية، يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم: ٤١).

وإذا كان الكون بني على نظام قويم، وغايات سامية، ومعاني هادفة تنزهه عن العبث، واللعب في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ (آل عمران: ١٩١)، فإنه بناءً على ذلك يدعونا القرآن الكريم إلى إعمال العقل في فهم السنن الإلهية في الكون وتدبّر آياتها في الطبيعة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت:٢٠)، وفي قوله

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠).

ب. **مسؤولية الإنسان نحو بيئته**: إن قوامة الإنسان وتميّزه بالتفوق العقلي على الكائنات الأخرى يضعه في موقع المشرف الذي تتحدد ملكيته بضوابط قيمية، تحد من غروره وفساده، ذلك أنّه إذا كان الإنسان يتفوق على الكائنات الحيوانية والنباتية بقدرة العقل، فإنّ هذه الكائنات تتفوق على الإنسان بقدرات أخرى، وبعطاءات وخيرات لا تنفد، ومن هنا كان مسؤولا في قوامته التي قال عنها تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) عن عملية الصلاح، والخير في هذه البيئة، يقول تعالى:﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦)، ومدعواً في خلافته إلى صون صلاح البيئة التي تعتبر "أمانة" كلف الإنسان بحفظها في وظيفة الاستخلاف، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب:٧٢).

ج. **وحدة المكوّنات البيئية**: لقد تنامى اهتمام الدارسين في العصر الحديث بالعلاقة بين الإنسان والأرض، فعقد مؤتمر "قمة الأرض" بالبرازيل عام ١٩٩٢، وأسس بعض العلماء حركة سماها حركة "الأرض والإنسانية" بهدف الارتقاء بالوعي البيئي الذي يعزز العلاقة القيمية الأخلاقية، بين الإنسان والبيئة، بحيث شبه بعض الباحثين هذه العلاقة "بالعلاقة بين الجنين ورحم أمه"، ورأى آخرون أنّ الكائنات البرية والبحرية وحتى المادية هي بمثابة أخوات للإنسان، مما يتوجب الارتقاء بعلاقته بها إلى أعلى مراتب القيم

الإنسانية من تفاعل وتعاطف وتعاون ومحبة، بل إلى حوار متناغم يقوم على الفهم والتفاهم، والاحترام والاعتدال في التعامل، باعتبار أنّ المخلوقات تشكل وحدة متكاملة في وحدة الكون، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وتشبيه القرآن للكائنات الحية الأخرى بالأمم، وبالإنسان، يؤكد المنشأ الطيني المشترك بين هذه الكائنات ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، وبقدر ما دعا القرآن الكريم إلى وحدة الغايات، واعتبار الإنسان جزءاً لا يتجزأ من البيئة مثل الكائنات الحية الأخرى، فقد دعت الفلسفات والايديولوجيات المادية المعاصرة إلى انفصال الإنسان العاقل عن الكائنات البيئية غير العاقلة، فأصبح الإنسان مقوداً بالقيم المستبيحة لكل الموارد دون رادع قيمي أو أخلاقي.

من هنا ندرك أن المشكلات البيئية التي تهدد المجتمعات والكون ليست إلا بسبب غياب الوعي بالمرجعية القيمية الإسلامية الموجهة للسلوك البيئي السليم لدى الإنسان.

تتأكد من ذلك الحاجة إلى منظومة قيمية تستند إلى احترام الإنسان للأرض، التي نشأ منها بما فيها من كائنات حية وهواء، وماء.

إن نشأة الإنسان من العناصر المكونة للأرض من تراب وماء تقتضي احترام هذه العناصر وصيانتها، وأن العيش المشترك بين الإنسان وكائنات البيئة الحية يستوجب رعاية حقوق الجار، يقول تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ (الرعد: ٤)، ومن هنا نجد تعاليم الإسلام حاثة على قيم الرحمة

بالحيوانات والنباتات، والتعاطف حتى مع الجماد بما لها من معاني ورموز سامية، فقد قال ﷺ في حق جبل أحد: " جبل يحبنا ونحبه " .

من هذه المرجعية القيمية الإسلامية تتجلى حصافة الفلسفة الإسلامية التي لاتجعل العقل حاكما وحده، ومصدراً لتفوق الإنسان على الكائنات البيئية الحية، بل تجعل " قيمة الخير " معياراً لتفوق الكائنات الحية أيضاً، مؤكدة أنّ هذه الكائنات لها قيمة أصلية نابعة من عطاء خيرها المتجدد، وبذلك يكون تفوق الإنسان لا يعطيه الحق في الحط من قدر هذه الكائنات والاستغلال المسيء لها.

وتستمد هذه المعتقدات القيمية رؤيتها من مكوّنات النظام البيئي التالية:

١ - **المكون الشمولي**: يرى الإسلام في البيئة منظومة متكاملة في جوهرها متعددة الأدوار والأبعاد في مظهرها، تحيا أجزاؤها بالكل ويستمد الكل بقاءه من الجزء، ومن هنا كان الإنسان في هذه الرؤية كائناً متكاملاً بمقومات مكوّناته المادية والروحية، وكانت البيئة وحدة متناغمة بعناصر مكوناتها النباتية والبحرية والحيوانية والجوية إلخ.... وبذلك اعتبر العلماء البيئة نظاماً متكاملاً من العلاقات وربط القرآن بين مختلف مكوناتها، يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢).

بناءً على هذا المنظور الشمولي الذي نظر به الإسلام للبيئة يمكن القول بأنّ الأزمات والمخاطر التي تعرفها البيئة ترجع في الأساس إلى قصور في وعينا القيمي، وخلل في نظامنا الفكري الذي اعتبر مكونات البيئة أجزاء متناثرة، وعناصر منفصلة، خلافاً للرؤية الإسلامية التي ترى في أجزائها ترابطاً

واستمراراً للحياة فيها، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر: ٢٧).

يرتكز هَذا التصوّر الإسلامي الشمولي للبيئة من عقيدة التوحيد التي يقوم عليها نظام الكون، لذا فإنه لا يمكن فهم علاقة الكون بالإنسان إلا في ضوء الإيمان بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق الخلائق كلها لغاية أرادها، ولقيم إيجابية في ذاتها دعا إلى احترامها وصونها.

٢- **مكوّن التوازن البيئي**: يرتبط بالرؤية الشمولية لوحدة الكون والبيئة، التوازن الذي يعد عنصراً رئيسياً من عناصر النظام البيئي، باعتباره حافظاً للعلاقات بين الكائنات وحامياً لاستمرار حياتها وبقائها، ويستند التوازن على مبدأ "الميزان البيئي" الذي تقوم في نظامه علاقات متوازنة بين مكونات البيئة، وهو إلى جانب ذلك يرتكز على مبدأ وسطية الإسلام الناهية عن مظاهر الإسراف والإفراط وتجاوز القدر المباح في التعامل مع البيئة التي سواها الخالق في نظام موزون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩)، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (الفرقان: ٢)، ومن هنا وجب أن يكون سلوك الإنسان في تعامله مع البيئة موزوناً، استجابة لقيم القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(الشورى: ١٧)، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، ومن معاني الميزان، العدل والاستقامة، والانصاف، يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

ومن هذه التوازنات يمكن القول بأنّ هناك حواراً مفتوحاً بين المكونات البيئية يستمد لغة فهمه وتفاهمه من قاموس "التوازن" المعزز لقيم التعايش

والسلام والتفاعل بين الإنسان والبيئة.

٣- القدر المحدود للموارد: لقد أفضى عصر الصناعة إلى بروز تيار مفرط في استغلاله للموارد الطبيعية، مما أثار وعي المفكّرين والمسؤولين إلى محدودية الموارد الطبيعية ورافقه مفهوم "التنمية المستدامة" التي توجب الترشيد الأمثل في استغلال الموارد استجابة لاحتياجات المجتمعات في حاضرها ومستقبلها، وتعزز هذا المفهوم بعد تقرير نادي روما عام ١٩٧٠، الذي دقّ ناقوس الخطر لنفاد الموارد أمام جنون الاستغلال الجامح.

وقد نجم عن هذا السباق في الأنشطة الصناعية ارتفاع في معدل حرارة الكرة الأرضية وتراجع التنوع البيولوجي وحدوث التغيّرات المناخية، مما كان له الأثر السلبي في نقص الموارد الطبيعية التي أشار إلى محدوديتها القرآن الكريم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد:٨) ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يشاء﴾ (الشورى:٢٧)، ومن هذه الآيات وغيرها، ندرك تنبيه القرآن الكريم إلى محدودية الموارد الطبيعية غير المتجددة التي أكّدها العلم الحديث، وقد أصبح معروفاً اليوم أنّ كميات الماء محدودة، إلى جانب الأضرار التي تلحق بالمحيطات نتيجة تسرب النفط في مياه البحار، مما يعد إفساداً للمجال البيئي الطبيعي الذي أشار إليه تعالى في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الروم:٤١).

ومن هنا يرى علماء البيئة أنّه في مقدمة المشكلات البيئية التي تهدّد أمن الإنسان وسلامته، نقص الموارد المائية الناتج عن الإسراف والتبذير في الاستخدام، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في

مواضع كثيرة، حيث نهى الرسول ﷺ عن تلويث الماء وإفساده، وعن التبوّل في الماء الراكد، ودعا إلى الوقاية من الملاعن الثلاثة.

وإذا كان العلم الحديث قد أكد الأهمية القصوى للماء في حياة الإنسان، حيث أبرز أنّ ٧٥٪ من مكوّنات جسم الإنسان من الماء، فإنّ القرآن الكريم اعتبره مصدراً للحياة فوق هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠). وحتى الكائنات غير العاقلة تهتز انتعاشاً ونماء بالماء ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥)، وبناء على هذه الأهمية الاستراتيجية والحيوية للماء وأثرها في الحياة البيئية والبشرية، وضعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) "استراتيجية تدبير الموارد المائية في العالم الإسلامي" التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في ماليزيا عام ٢٠٠٣ .

وما يقال عن الماء يصدق على الحيوانات والنباتات والمعادن التي تستوجب على الإنسان الترشيد في استغلالها وعدم هدر مواردها، وتدعوه إلى تغيير سلوكه وفكره البيئيين، استناداً إلى المرجعية الإيمانية والقيمية التي تعتبر مكوّنات البيئة كلها نعمة من نعم الخالق التي وجب شرعاً وعقلا وحضارة حمايتها والمحافظة على مواردها.

٤- **التنوع البيولوجي**: تتميز الحياة البيئية بالتنوّع في أشكالها وأنواع كائناتها التي تعتبر ضرورية لاستمرار الحياة، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور:٤٥). وإلى جانب التنوّع الحيواني يشير القرآن الكريم إلى

اختلاف النباتات، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء:٧). ويعتبر التنوّع الحيوي عنصراً رئيساً في منظومة القيم الشمولية والتوازنية التي تجعل الكون بسمائه والأرض بمكوّناتهما وحدة متناسقة، يعد الإخلال بعناصرها إفساداً للصلاح وللنظام البيئي القويم، مما يفضي إلى القول بأنّ الإنسان الذي أصبح في المفهوم التنموي المادي يدور كالآلة للاستهلاك والإنتاج، قد نسي المعاني السامية التي خلق من أجلها مع الكائنات الأخرى في هذا الكون، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأنّ هناك خللا قيمياً في المناهج التنموية المعاصرة التي تهدد بحرب وصدام بين الإنسان والطبيعة، ولعلّ غياب الحاكم القيمي من محكمة الضمير البيئي للإنسان، وافتراس البيئة الصناعية للبيئة الطبيعية ما دفع بقلق الإنسان المعاصر إلى التفكير في العودة إلى رحم الطبيعة الدافئ عند جان جاك روسو عندما أرجع تعاسة الإنسان إلى "تغلغل الإنسان الصناعي في داخل الإنسان الطبيعي".

٥- **النظام البيئي الحضاري**: إذا كان النظام البيئي الحضاري يتكون من المكوّنات العقدية والثقافية والفنية والقيمية والقانونية، إلخ... فإنّ الإنسان باعتباره كائناً متعدد الأبعاد لا يحيا بالغذاء والهواء والماء فقط، بل إنّه بالرغم من المؤتمرات التي عقدت والتنظيمات التي وضعت والاعتمادات التي رصدت، مازال النشاط البشري المقود بشهوة الاستغلال والأنانية المتطرّفة مبعثاً لتلوث الجو والبحر والأرض، ومازالت النظريات الفكرية العبثية والمعتقدات الإيديولوجية المادية والقيم السلبية المادية تهدد البيئة الحضارية للإنسان المسلم بالتلوث الثقافي المهدد للهوية الحضارية والذاتية الثقافية المكونتين للبيئة الحضارية، ومن هنا وجب تحصين هذه البيئة الحضارية

والثقافية بحصون قيمية أبرزها ما يلي:

أ. **الحصون التربوية**: تتأكد الحاجة أمام تنامي السلوك البيئي المنحرف إلى رسائل تربوية تنهض بها مؤسسات التربية، الوالدية، والأسرية، والنظامية، وغير النظامية، للتربية على القيم التي تعزز التكامل بين الجانب التربوي القيمي والجانب التعليمي المعرفي لتعزيز الأخلاقيات البيئية الحامية لسلامة وصلاح البيئة، ويقتضي هذا البعد التربوي القيمي في تعامل الإنسان مع البيئة العمل على محاربة الأمية البيئية مع الأمية الأبجدية، والوظيفية والحضارية، ولن تتحقق هذه الغايات إذا لم يبن الإنسان من الداخل بفعل التربية، ويربى على السلوك السليم نحو بيئته استناداً إلى فلسفة التغيير الإسلامية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، كما يقتضي دمج مفاهيم البيئة في المناهج التعليمية والبرامج الإعلامية لتحقيق هذه الغايات.

ب. **الحصون الثقافية**: إذا كانت الثقافة جماع ما ينتجه الإنسان ويعتقده من مفاهيم وتصوّرات، وما يمارسه من مواقف وتوجّهات، فإنّها حصون للذات من السقوط، ومقوم قيمي بان لعمارة الكون وصلاح المجتمع. ومن هنا وجب الوعي في هذه المنظومة الثقافية الإسلامية بآفات التلوث الثقافي الماسخة لقيم الخير والسلام والتعايش المنظمة للعلاقة الإيجابية بين الإنسان والبيئة، وموازاة مع التلوث الفكري الناجم عن تأثير التيارات العلمانية والعبثية والمادية التي تنزع المعاني والقيم السامية عن الكائنات والمكوّنات البيئية يهدد التلوث اللغوي سلامة البيئة اللغوية للمجتمعات الإسلامية، مما

يضعف قيم المواطنة وأخلاقيات الولاء للبيئة التي يحيا فيها الإنسان.

ج. **الحصون الجمالية**: إذا كان التقدم بأبعاده العلمية والتكنولوجية قد فتح عين الإنسان للبحث عن الموارد المادية في الكنوز البيئية، فإنّ هذه النظرات التي حصرت رؤيتها في الغايات المادية قد أضعفت قيم الجمال في نظرته للكون والبيئة، فلم يعد اليوم الإنسان كالإنسان القديم الذي أحب الطبيعة واحترم شأن البيئة، ورأى في مظاهرها صوراً للصفات الإنسانية، حيث نجد الشاعر البحتري يقول:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتبسما

تؤكد هذه الأشعار حاجتنا في المناهج التعليمية والكتب المدرسية والرسائل الإعلامية إلى التربية على القيم الجمالية التي تصبغ نظرة المتشائمين في الحياة بالبياض والتفاؤل، وتستجلي مظاهر الجمال في هذا الكون الذي خلق في أبدع نظام وأجمل صورة، باعتباره مخلوق الخالق الجميل والذي يحب الجمال، ومن هنا كان الجمال قيمة تنبع من داخل الإنسان لتعكس في مرآتها جمال الكون والبيئة وفي ذلك يقول إيليا أبو ماضي داعياً إلى محبة الأرض وفتح العيون للتملي بجمال الطبيعة:

إن شر الجناة في الأرض نفس تتوخّى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى أن ترى فوقها الندى إكليلاً
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئا جميلا

يكشف هذا الوعي البعد الجمالي لمكونات الطبيعة التي تشكل في

أشكالها وألوانها لوحة فنية لا يقدر على رسمها إلا خالق مبدع هو الله، إلا أنّ آفات التلوث التي ملأت الكون والضجيج الذي صك الآذان، والغيوم التي حجبت عن عيوننا جمال الكون، والقلق النفسي الذي عشش في حياة الإنسان بفعل الفلسفات والحياة المادية التي جردت وجود الإنسان والكون من المعاني المقدسة، قد أعمى الإنسان عن إدراك المظاهر الجميلة ذات المعاني والرموز السامية، يقول ميخائيل نعيمة:

إذا سماؤك يوما تحجبت بالغيوم

أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوما

د. الحصون التشريعية: موازاة مع الدعوة إلى تجريم المسيئين للقيم والأديان، وجب سن قوانين رادعة للاعتداءات الضارة بالنظام البيئي، وواقية من التلوث واستنزاف الموارد المهددة للحياة البيئية، وهذا ما جعل المؤتمرين في قمة الأرض بالبرازيل يبدأون مؤتمرهم بدقيقتي صمت تعاطفاً مع هموم الكوكب المريض، وهو ما دعا الغيورين على مصير العالم إلى الدعوة لعقد اتفاقيات بين الدول لتوفير الحماية القانونية للهواء والماء ومكافحة أنواع التلوث، منها اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام ١٩٨٢ .

وبالرجوع إلى الشريعة الإسلامية نجد أنّ تعاليم الإسلام كانت سباقة إلى سنّ قواعد شرعية للعلاقة بين الإنسان وبيئته استناداً إلى حقوق الله المتجلية في الإيمان بوحدانيته، وبأنّه الخالق والمالك، وحقوق الآخرين المتجلية في حقوق المخلوقات والكائنات الحية المرتكزة على قاعدتي "لا ضرر ولا ضرار" و"درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، فقد غفر الله لامرئ

سقى كلباً كاد أن يموت من العطش وعذب امرأة حبست هرة فما هي أطعمتها ولا تركتها تعيش من خشاش الأرض، ومنها حقوق النفس المتجلية في حفظ النفس من الأضرار المهلكة وكبح جماح شهواتها المفسدة.

ومن تمّ نجد الإسلام حاضناً لأرقى القيم القانونية والأخلاقية التي تستهدف دفع الضرر عن الإنسان والبيئة والتعامل مع مخلوقاتها تعاملا رشيداً، حكيماً، استناداً إلى القواعد الشرعية البانية لمصالح العباد والبلاد.

وإذا كان الله قد سخّر للإنسان ما في الكون من مخلوقات فإنّه جعل ملكيته محدودة بالانتفاع المشروع الذي يحفظ حق الحياة، ومنضبطة مع الناموس الإلهي في هذا الكون، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩).

نستخلص مما سبق أنّ المجتمعات الإنسانية اليوم بحاجة أكثر إلى مراجعة منظورها البيئي، وتقويم علاقتها بالمخلوقات الكونية، للتحاور معها على أساس الاحترام والمحبة والوعي بالقيم والغايات السامية لوجودها، يقول تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:١٧-٢١).

وتقتضي هذه المراجعة إيجاد "أخلاق وقيم بيئية جديدة" تستند إلى تعزيز المفهوم العمراني لخلافة الإنسان في الأرض، وترسيخ الأبعاد القيمية في النشاط الاجتماعي، والوعي بالمعاني المقدّسة للمخلوقات الإلهية في الكون، والإيمان بوحدانية الله وبوحدة مكوّنات عناصر الكون التي تشبه إلى حدّ كبير وحدة التكوين البشري للمؤمنين، كما نجد في الحديث النبوي الشريف

" مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (أخرجه البخاري).

بناءً على ذلك، نستطيع القول بأنّ المجتمع البيئي الذي أشار إليه تعالى "بالأمة" يمثل وحدة متناغمة بين عناصره ومكوّناته المائية والهوائية والنباتية والحيوانية والبشرية، فإذا أصيب عنصر بضرر، انتقلت آفاته إلى الأعضاء البيئية الأخرى، تأكيداً لقانون "التوازن" الذي يقوم على التفاعل والتأثير بين المكوّنات البيئية المختلفة.

هـ - الحصون الحوارية: لايشك أحد في أن الحوار مكون ثابت في منظومة العلاقات؛ سواء أكانت بين الكائنات البشرية أم بين الإنسان ومكوناته البيئية، الجوية والمائية والبرية والحيوانية والنباتية، مما يقتضي الفهم الواعي للغتها والتفاعل المتحضر مع عناصرها، باعتبار أن الحوار مع الآخر - وبالتالي مع البيئة - يعد مطلباً شرعياً، وواجباً أخلاقياً، وضرورة إنسانية، لحفظ صلاح الكون من الفساد وأمن الإنسان من الاعتداء والاستغلال.

ويقتضي الحوار الهادف إلى تعزيز قيم الصلاح والخير والسلام بين الإنسان والبيئة، لحفظ صلاح الكون من الفساد وأمن الإنسان من الاعتداء والاستغلال.

ويقتضي الحوار الهادف تعزيز قيم الصلاح والخير والسلام بين الإنسان والبيئة، بالاستناد إلى قواعد قيمية مهمة، منها:

١ - الفهم الواعي للبيئة:

من المؤكد أن الجهل بقوانين البيئة وحقوقها ونظمها، وكنوزها، وأسرار جمالها، ولغاتها، وألوانها، عامل من عوامل فساد العلاقة بين الإنسان وبيئته، ذلك أن الإنسان عدو لما جهل، وما لم يبدأ الإنسان بفهم البيئة ويتربى على

العيش بسلام معها، مع إدراكه ببصره وبصيرته غاية وجودها ووظيفتها، فإنه يبقى أمامها مجرد آلة، لا قلب يفقه، ولا عين تبصر، يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ويعتبر الفهم الواعي للبيئة والتفاهم معها مدخلاً رئيساً لاحترامها، ذلك أنه ما لم يحترم الإنسان صفاء هوائها، ونقاء مائها، وحياة كائناتها، وترشيد مواردها، فلن يقوم حوار راق، لإحلال التعايش محل الصدام، والإحسان محل العدوان والاستهتار، يقول تعالى داعياً إلى قيم الإحسان: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧).

٢- الاعتدال الحامي للرصيد البيئي:

تعتبر قيم الاعتدال والوسطية من مقومات الحوار الناجح مع البيئة، ذلك أن من مظاهر تأزم العلاقة بين الإنسان والبيئة، غلوه في استغلال مواردها، ومبالغته في استعبادها ، وغطرسته في احتقارها، فلم تعد الطبيعة مع استعلائه وغروره عنصراً من نظامه البيئي السليم، وجزءاً من أجزاء وجوده، بل أصبحت «عبداً مملوكاً» تحكمه علاقات العبودية السادية التي لا تعتبر الاستخلاف أمانة، ولا المحافظة على خيراتها عبادة، وفي ذلك يقول تعالى عن البشرية التي أفسدت وكفرت بنعم الله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢).

ومن هنا يمكن القول بأن البشرية إذا لم تبادر إلى نبذ العنف، والإرهاب والأنانية، وإلى مراعاة حقوق البيئة، وتحقيق العدل والتواضع والتعايش، وبناء قضاء قيمي حام للعيش الآمن المشترك مع البيئة؛ فإن الإنسانية ستواجه حتماً «حرباً بيئية» مدمرة ضدها.

٣- المحافظة على التنوع البيئي:

الاختلاف سنة إلهية يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، ومن هنا كان التنوع البيولوجي غاية أرادها الله في الكَون لحفظ توازنه وإثراء محيطه، وكان من شروط الحوار الباني لقيم التعامل الإيجابي والانسجام المتناغم مع البيئة المحافظة على التنوع البيئي الذي يعد مصدراً من مصادر الثروة البيئية والخبرات الطبيعية، وموازاة لمفهوم «التنوع الثقافي» الذي يحترم الخصوصيات الثقافية النابعة من التعدد، فإن الحياة البيئية بما تختزنه من تنوع في كائناتها وتعدد في أشكالها تقتضي إيجاد بناء قيمي وميثاق أخلاقي حول «التنوع البيولوجي» أسوة بميثاق «التنوع الثقافي» الذي أعلنه المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة المنعقد في الجزائر عام ٢٠٠٤ واتفاقية اليونسكو لحماية التنوع الثقافي.

ومن هنا كان الإيمان بحكمة الخالق في الاختلاف والتنوع عاملاً من عوامل الاحترام، وبالتالي التفاهم والتحاور مع مكونات البيئة المختلفة التي أوجدها الله لغاية الصلاح والخير والثراء في هذا الكون، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤)، ويقول أيضاً: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).